Dirasat, Human and Social Sciences, Volume 49, No. 6, 2022

Deanship of Scientific Research

The Image of the Abbasid Society between AL- Hamathani and Al- Hariri in Al-Maqamat

Randa Dabbous[1]*, Muhamad Alsharida

Department of Arabic language and Literature, School of Arts, The University of Jordan, Amman, Jordan.

Received: 10/3/2021
Revised: 29/6/2021
Accepted: 14/9/2021
Published: 30/11/2022

* *Corresponding author:*
randadabbous@yahoo.com

Citation: Dabbous, R., & Alsharida, M. (2022). The Image of the Abbasid Society between AL- Hamathani and Al- Hariri in Al-Maqamat. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *49*(6), 361–373.
https://doi.org/10.35516/hum.v49i6.3758

© 2022 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

My study sought to attempt to show the image of society through this art, and to reveal the extent of its representation of the Abbasid society (358 - 516 AH) by both Al-Hamathani and Al-Hariri by addressing many images that represent the system of values of the community's citizens in the walks of life, including joys and sorrows. And since the Maqamat between Al-Hamathani and Hariri were a reflection of all that, the time separating between them revealed to us many changes and transformations that were evident among the Maqamat. The study concluded that the Maqamat of both Al-Hamthani and Al-Hariri included a great deal of elucidation of the various images from the life of the public for a specific group of the community in their times by monitoring many of those images that came as a mirror that reflects the system of values and the customs, traditions and rituals they hold between them which were common along their time. That era prevailed over the span of their time as they were considered a rich historical record, and their participation in dealing with some of these prevailing customs, traditions and social aspects.

Keywords: Maqamat; Al-Hamthani; Al-Hariri; Abbasid society.

صورة المجتمع العباسي بين الهمذاني والحريري في المقامات

رندا دبوس*، محمد الشريدة

قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الآداب،الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

ملخّص

سعت دراستي هذه إلى إظهار صورة المجتمع من خلال هذا الفن، والكشف عن مدى تمثيله للمجتمع العباسي 516 - 358)هـ (عند كلّ من الهمذاني والحريري عَبر تناول العديد من الصور التي تمثل منظومة قيم أبناء المجتمع في مناحي الحياة من أفراحٍ وأتراح. ولما كانت المقامات بين الهمذاني والحريري انعكاسًا لكلّ ذلك، فإنّ الزمن الفاصل بينهما كشف لنا عن تغيرات وتحولات عديدة تجلّت بين ثنايا مقاماتهما. وقد خلصت الدراسة إلى أنّ مقامات كلّ من الهمذاني والحريري تنطوي على قدر كبير من استجلاء الصور المتنوعة من حياة العامة عند شريحة محددة من أبناء المجتمع في عصريهما عبر رصد العديد من تلك الصور التي جاءت مرآة تعكس منظومة القيم وما تحمله بين ثناياها من عادات وتقاليد وأعرافٍ سادت ذلك العصر على امتداد زمنهما على عدّها سجلًّا تاريخيًّا حافلًا، واشتراكهما في تناول بعض تلك العادات والتقاليد والمظاهر الاجتماعية السائدة..

الكلمات الدالة: المقامات، الهمذاني، الحريري، المجتمع العباسي، الدراما.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا محمد أفضل الخلق والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم وعلى آله وصحبه الكرام البررة أجمعين، أما بعد.

يُعد فن المقامة من الفنون النثريّة الأدبية المستحدثة التي ظهرت واشتدّ عودها في أواخر القرن الرابع الهجري كونها تشكّل فضاءً سرديًا متميّزًا بعوالمه وشخصيّاته؛ نتيجة ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية، فكان هذا الفن الأكثر تأنّقًا وتصنّعًا، وزخرفةً بديعيةً قد عكسَ صورة الحضارة العباسية في البناء والفنون الزخرفية وتنوع الحياة وترفها، فتنوعت حوله شروحٌ وقراءاتٌ متباينةٌ، بل وتفسيراتٌ متعارضةٌ لطبيعته وسماته، وقيمته الجمالية وأسباب ظهوره.

لعلنا بعد استقراء مقامات كلّ من الهمذاني والحريري واستجلاء ما تضمنته بين ثنايا سطورها نستطيع القول إنّها جاءت مرآة تعكس حياة السّواد الأعظم من الناس في عصريهما من خلال عرضها لجوانب مهمة من الحياة الاجتماعية والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة لتلك الحِقبة من الزمن، وإنّ الشهرة التي اكتسبتها مقاماتهما جاءت نتيجة الصلة القوية بين المقامات والمجتمع وحياة الناس. وإذا كان أكثر هذه المقامات قائمًا على الكدية أو ما يتصل بها من أساليب المكر والاحتيال، فإنّ هذا ليس إلا جانبًا من جوانب الحياة الفقيرة البائسة التي تحياها طبقة معينة من الناس، ثم إنّها صورة مختلفة للأساليب المتنوعة التي يبتدعها المكدون في المساجد والأسواق والبيوت وعلى قارعة الطرقات، لنجدهما قد استعرضا في مقاماتهما محاسن ومساوئ المجتمع وبعضًا من عاداته وتقاليده.

وإنّ كلًّا من الهمذاني والحريري يقدمان لنا عَبر مقاماتهما صورة توشك أن تكون متكاملة، إذ جلّيا العديد من القضايا الاجتماعية؛ من مجالس أهل العلم والأدب وما يدور فيها من مساجلات ومناظرات، وما يقابلها من مجالس الشراب والطرب وما يدور فيها من أقداح وآلات، إضافةً إلى الحديث عن الوعاظ والمساجد والأسواق والدور والحمامات والحوانيت والمطاعم والحانات، وهما بذلك يرسمان لنا من خلال ذلك كلّه كثيرًا من صور الذين يتحدثان عنهم بأزيائهم، وهيئاتهم وكأنّهم ماثلون أمام أعيننا.

وإن كان من المتعارف عليه أنّ المقامات على نحوها الظاهري إنّما تدور على الكدية والاستجداء، غير أنّ كلًا من الهمذاني والحريري قصدَ من تأليفه لها نقد المجتمع نقدًا بناءً متناولًا صورًا من منظومة القيم التي سادت المجتمع العباسي أنذاك. وللوصول إلى تلك الصور التي رسماها للعادات والتقاليد لأبناء المجتمع لا بدّ في البداية من استجلاء الحياة السياسية والاقتصادية التي كان لها الدور الأبرز في ظهور تلك العادات والتقاليد.

ولا شكّ في أنّ الدراسات السابقة التي عالجت هذا الجانب في المقامات كثيرةٌ نذكر منها:

1. دراسة صدام حسين محمود عمر " مقامات بديع الزمان بين الصنعة والتّصنّع " التي تناولت مظاهر العصر الذي عاش فيه الهمذاني، إضافةً إلى تناول المقامات وتاريخها وعلاقتها بالواقع ومضامينها وأساليبها، والصنعة والتّصنّع فيها، وتحليل بعضٍ منها على نحو تفصيلي.

2. دراسة الكدتور مازن مبارك " مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته " التي يوضّح من خلالها كيف كان المجتمع العباسي زمن الهمذاني، مؤكّدًا أنّ الأدب يستطيع - إلى حدّ ما - أن يصوّر لنا جانبًا أو أكثر من جوانب الحياة الاجتماعية التي ينشأ في ظلها؛ على أنّ هذه الصورة قد تختلف في درجة وضوحها وصدقها باختلاف الظروف والأحوال.

3. دراسة خليفة بن حارب بن سعيد اليعقوبي " صورة المجتمع العباسي من خلال مقامات الحريري " تناولت الدراسة التعريف بالحريري وعصره وجانبًا من الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والأخلاقية وما تضمّنته الحياة الاجتماعية من حديثٍ عن الأعياد، والفقر، والبطالة، والكدية مع ذكر بعض الفئات التي تمثل المجتمع وقتئذٍ.

4. دراسة محمود عبدالله محمد صيام " أساليب النقد الاجتماعي في مقامات الحريري: دراسة بلاغية " تناولت الدراسة الأسلوب الأدبي للمقامة الحريرية على نحوها ومضمونها، ليس في صياغتها اللفظية فقط، إذ ركّزت الدراسة على البناء التركيبي وكيفية صياغته وإبراز بلاغته عبر النظرة الكليّة للمقامة من خلال استعراض بعض المقامات التي تناولت البعد الاجتماعي واستقراء ودراسة ما في المقامة من صور بلاغية وتحليل عناصرها والوقوف على ملامحها والكشف عن مضمونها وأبعادها النقدية والفنية والبلاغية.

ودراسة عاطف عبد اللطيف السيد أحمد " اللمحات النقدية في مقامات بديع الزمان الهمذاني: دراسة تحليلية "، ودراسة الدكتور عبد الفتّاح كيليطو " المقامات السرد والأنساق الثقافية " وغيرها الكثير، ومع ذلك كلّه يظلُّ هذا المشهد خصبًا يحتمل الوقوف عنده وربطه بالواقع السياسي والثقافي، إذ إنّ صدور الهمذاني والحريري عن ذلك الواقع لم يبلغ غاية الإبداع الفني في الإخراج والتخفي وراء النصوص.

أولًا: المجتمع العباسي (حِقبة الدراسة).

أعلن العباسيون أنّهم أصحاب الحقّ الشرعي في الخلافة والحكم، فأستأثروا بها دون أبناء عمومتهم العلويين مما أدى إلى مضي العلويين وأنصارهم يدعون سرًا لدعوتهم كلما أتيحت لهم الفرصة - وهم الذين كانوا يسعون وراء هذه الخلافة التي يعدّونها حقًا لهم وأنهم أحقّ بها من العباسيين - في حين أخذ العباسيون ينادون بأنّهم أصحاب الحقّ في الحكم وأنّ الشعب مسخرٌ لهم وأنّهم أداة مسخرة لجمع الضرائب والخراج؛ مما أدى إلى ضعف الخلافة وضياع هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة، وقيام العديد من الثورات والفتن كثورة القرامطة في بدايات القرن الرابع (316هـ) وما نتج عنها من مقتل العديد من

الأفراد، ومن قبلها ثورة الزنج في البصرة.

هذا وقد تداول الحكم في تلك الفترة –حِقبة الدراسة- أربعة من الخلفاء هم؛ المستكفي بالله (334هـ)، والمطيع لله (334هـ - 364هـ)، والطائع لله (363هـ - 381هـ)، والقادر بالله (381هـ - 422هـ). إذ بدأ النفوذ الفارسي يزداد حتى أصبح الفرس هم الحكام الحقيقين؛ ونتيجةً لذلك فإننا نجد الغلبة للطابع الفارسي على الدولة في تقلدهم نظام الحكم والملبس والزي الرسمي، أما الخلفاء فليس لهم من الحكم وقتئذٍ إلا اسمهم. إلى أن بسط بنو بويه نفوذهم وتقلدوا زمام الأمور فكان نتيجة ذلك أن غرقت البلاد في الفوضى والظلم والقتل والفرقة والاختلاف الذي أدى إلى ضياع هيبة الخلافة. ولعل ذلك يعود إلى اعتماد العباسيين أنفسهم على الجنسيات المتعددة التي بات لها النفوذ الأكبر في التدخل في الخلافة وتوليتهم المناصب المدنية والعسكرية. (السّهيمي، 2014م، ص20)

فضلًا عن تدهور الخلافة بسبب كثرة الترف والإسراف الذي كان يعيش فيه الحكام على حساب الطبقة العامة. كلّ ذلك أدى إلى انعكاس الحالة السياسية على الحالة الاجتماعية فزاد التفاوت الطبقي بين فئات الشعب وانعدم الأمان الاجتماعي وزادت الأسعار وقلت المصادر التي تموّل الدولة.(السّهيمي، 2014م، ص47)

هذا وقد تشكّل المجتمع العباسي في ثلاث طبقات أو فئات اجتماعية. غير أنّه في هذه الحِقبة تميّز بشراسة الطبقة المستغِلة حيث أخذت تتّبع مختلف الأساليب لابتزاز أموال الطبقة المعدمة التي بدأت تدافع عن نفسها ووجودها بطرق شتى ومبتكرة؛ ففي سنة 358هـ اشتد الغلاء بالعراق واضطربت أحوال الناس، فكان من نتائج سوء توزيع الضرائب والاستغلال الذي رافق عمليات جبايتها ونتيجة للنظام الاقتصادي المرتبك الذي سارت عليه الدولة العباسية؛ نشوء طبقتين اجتماعيتين تمثلتا في الطبقة الحاكمة المترفة المستغِلة من حكام ووزراء، والطبقة المعدمة المحكومة المستغَلة من العامة. (الدّاوي، 1945م، ص28)

أما الطبقات التي اشتمل عليها المجتمع العباسي - حِقبة الدراسة - فقد تمثّلت في الطبقة العليا التي ضمّت الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومَن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار. فكان أصحاب هذه الطبقة يغرقون في النعيم، يتقدمهم الخلفاء والوزراء في تعدد قصورهم التي تشير إلى أنّ دار الخلافة كانت واسعةً بحيث كان القصر الواحد يمتد إلى فرسخ أو يزيد وكأنّما دار الخلافة وقصورها كانت أشبه بمدن صغيرة تمتلئ بالأبنية والقباب والبساتين والجداول والبرك والنوافير مع التأنق في صناعة أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور، وتعليق الستائر الحريرية مع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والتحف المرصّعة بالجواهر إضافة إلى الترف في المأكل والمشرب والملبس. (ضيف، 1973م، ص67)

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه من أموال الدولة. وعلى نحو ما كان الخلفاء والوزراء يعيشون في هذا الترف كان كذلك القواد الذين كان بيدهم مصير الخلفاء الذين بدورهم كانوا يفدون أنفسهم منهم بكلّ ما يطلبون من أموال وإقطاعات على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء فكانت لهم ضياعٌ واسعة تغلّ عليهم أموالًا وفيرة.

إضافةً إلى أبناء البيت العباسي الذين كانوا يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة، فالكثير منهم كانوا يتولون مناصب مهمة. والخلفاء ما يزالون يقطعون المقرّبين منهم الإقطاعات والضّياع فضلًا عن تلك الضّياع التي كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم. وقد أعان ذلك كلّه على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيالًا من أبنائها غارقةً بالنعيم، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء. وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضّياع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتاجرون برؤوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة وكل ما تحتاجه تلك الطبقة، وكان في مقدمتهم النّخاسون الذين يجلبون الرقيق والجواري من أطراف الأرض. (ضيف، 1973م، ص53)

أما الطبقة الوسطى فهنالك العديد ممَن يندمجون فيها وفي مقدمتهم موظفو الدواوين من علماء العربية والفقه والتفسير والحديث، ورجال الجيش ممَن يعتمدون في رواتبهم على الدولة، فضلًا عن التجار والصناع ممَن كانوا يقومون على صناعة أثاث المساكن من بسط ونمارق ومقاعد لدور الخلافة إضافة إلى صناعة الأزياء والطعام. كما يدخل في عِداد هذه الطبقة المغنون والشعراء الذين كانت تتدفق عليهم الأموال تدفقًا كبيرًا. (ضيف، 1973م، ص61)

وتأتي بعد ذلك الطبقة الدنيا أو طبقة العامة من الرعية من الزّراع وأصحاب الحِرف الصغيرة والخدم والرقيق التي يقع عليها عبء العمل كلّه، فهي التي تعمل في الإقطاعات والضّياع وهي التي تقوم على أسباب الحياة المترفة للطبقتين الوسطى والعليا، فكلّ ما تتمتع فيه هاتين الطبقتين من الترف إنما هو من أيدي هذه الطبقة العاملة، يسلبونه منهم بطرق شتى ولا يبقون لهم سوى البؤس والشقاء.

أما صغار الصّناع والتجار فكانوا مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون إلا ما يسدّ رمقهم من أجرٍ طفيف، وكانت هذه الطبقة تعمل في كلّ المهن الحقيرة مما أدى إلى أن ينشأ فيها كثيرٌ من أصحاب الملاهي الصغيرة الطّوّافين والمهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا. كما نشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمكدين وكانوا خليطًا من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك؛ مستعملين كلّ حيلة من شعر أو رُقية للحصول على المال. (السّهيمي، 2014م، ص64)

ومما لا شك فيه وجود نهضة علمية على الرغم من وجود الفوضى السياسية التي عمّت الدولة الإسلامية وكانت قد انعكست آثارها على الحياة الاجتماعية، فمن مظاهر النهضة العلمية في تلك الأونة انتشار المعارف والمكتبات وكثرة البحث والتدوين في اللغة والصرف والنحو والشعر والنقد وغيرها

من العلوم المتعددة. (السّهيمي، 2014م، ص20)

فقد تلاقت في تلك الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل الأمم وآثارها في العلم والثقافة، وكانت الدولة مزيجًا من شعوب كثيرة، فكان لامتزاج العنصر العربي بالعناصر الأجنبية الأخرى تأثيرٌ في الحياة العقلية والثقافية؛ لأنّ لكلّ عنصر من هذه العناصر الأجنبية والعربية عاداته وتقاليده وأفكاره وآدابه وصفاته التي تميّزه عن الآخر. وربّما كان لهذا الامتزاج بين العرب والفرس والروم والهنود أثرٌ واضحٌ في هذا العصر لانّ مزج الثقافات المختلفة مع بعضها يؤدي إلى خلق بيئةٍ تتمتعُ بقدرٍ كبيرٍ من الخصائص والميّزات المتنوعة.

هذا وقد ازدهر الإبداع في العصر الذهبي للدولة العباسية واستمرّ في رقيّه وازدهاره في عصر ضعفها حين أرهقت السلطة المجتمع بالضرائب والاعتداء على الأملاك في أيام الفتن. ولعل العامل الفكري والأيدولوجي كان أكبر المؤثرات المباشرة في تطور الفنون النثريّة في العصر العباسي كالمقامات؛ فهو الفن الأقرب إلى مسار الحياة الاجتماعية والسياسية من غيره من الفنون لأنّ مادته الإنسان والمجتمع. وقد استمدّ الفن القصصي في المجتمع العباسي الكثير من أجوائه وعناصره كظواهر؛ السمر ومجالس العلم والأدب والمناظرات واللهو والجواري والزهد والتصوف والقصص والكدية، وظاهرة اللصوص والعيارين. (السّهيمي، 2014م، ص43)

فضلًا عن اهتمام كتّاب النثر الفني بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت ذلك العصر؛ إذ يُعدّ العصر العباسي هو عصر الانفتاح وعصر تنقيب الثقافة العربية وإظهارها للعالم؛ وذلك عبر التدوين والكتابة التي بلغت غاية مجدها؛ مما أوجد تراثًا ضخمًا من المؤلفات التراثية كـ " كليلة ودمنة "، و" البخلاء "، و" مقامات بديع الزمان الهمذاني "، و" ألف ليلة وليلة ". هذا وقد قيل إنّ ظهور المقامات في العصر العباسي ليس إلا نتيجةً لانفتاح العالم العربي على العالم الغربي واكتساب الثقافات الأجنبية الأخرى فكان هدفها بدايةً تعليميًا إذ أُتخذت مقامات الهمذاني نموذجًا للدراسة لأنّ صاحبها يعدُّ أول مَن ابتدع هذا اللون من الأدب العربي ولعل أبرز ما تقع عليه عينا القارئ في المقامات الأسلوب الرصين والعبارات الفصيحة واللغة القوية، مما يسهل على الطلاب جمع حصيلة قوية من مفردات وأساليب اللغة العربية.

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الفن وقتئذٍ؛ تكديس الأموال عند الأمراء والوجهاء وأصحاب السلطة والجاه، وعلى النقيض ما كانت تعيشه الرعيّة من الفقر والبؤس وما تعانيه من حياة قاسية؛ ظهرت المقامات فكانت ثمرة تيارين هما: تيار الفقر والحرمان، وتيار أدب الصنعة.

أما التيار الأول فقد انعكس على الأدب؛ فجاء أدب التّسوّل لينقل لنا صورًا من الحياة لفئةٍ كبيرةٍ من الناس الذين تنكرت لهم الأيام فلجأوا إلى ألوانٍ من الحيل لكسب العيش. وكانت قد أشتهرت في القرن الرابع طائفة منهم اشتغلت بالتّكدي هم الساسانيون الذين كان لهم أدب خاص بهم. وجاء تيار الصنعة ليهتمّ بتذوّق الأسلوب وتعقيده فبلغ هذا التيار ذروته على يد الصاحب بن عبّاد. وبذلك يشكّل هذان التياران مصدرين أدَّيا إلى نشأة فن المقامة. (كنه، 2003، ص57)

وهكذا جاء الأدب ليتميز بظهور الحياة الثقافية فيه وبصدق تمثيله للواقع الاجتماعي، إذ أصبح في هذا العصر صناعة عقلية في الإنشاء والتأليف بكلّ ما يتجلى فيه من إبداع التصوير واتساع الخيال بالمبالغة الشديدة والاكثار من الحكمة والمُثل والبراهين العقلية. (ضيف، 1973، ص36)

ولعل أبرز الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في هذه الحِقبة الخصومات العنيفة التي قامت بين الكتّاب؛ إذ كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت نتيجة أطماعهم في الحياة المادية. فكانوا يمثلون غالبًا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية التي يقومون في الدفاع عنها؛ كتلك الدسائس التي كانت تقع بين الكتّاب دليل جشعهم في حبّ الحياة وفهمهم لها فهمًا ماديًا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التي ظهرت في رسائلهم وأبحاثهم ولعل أهم الخصومات التي وقعت بين كتّاب ذلك العصر تلك الخصومة التي وقعت بين الهمذاني والخوارزمي وترجع إلى رغبة الهمذاني في الظهور وطمعه في الانفراد بالشهرة. (مبارك، 1934م، ص199)

ثانيًا: صورة المجتمع العباسي عند كلّ من الهمذاني والحريري.

إلى أيّ مدىً استطاعت مقامات كلّ من الهمذاني والحريري أن تعبّر عن الجوانب الاجتماعية للمجتمع؟ لعل مجمل النصوص الأدبية لا تكاد تخلو من الإشارة إلى مظاهر الحياة الاجتماعية، أو السياسية، أو الثقافية التي تنشأ في ظلها، وقد يختلف وضوح الصورة وصدقها باختلاف الظروف والأحوال التي ترسمها في مجتمعٍ من المجتمعات؛ فالأدب استطاع إلى حدّ ما أن يصور لنا جانبًا أو أكثر من جوانب الحياة التي عاشتها الشعوب والمجتمعات القديمة. وإنّ الفن الأدبي الذي سنستجلي من خلاله صورة المجتمع في زمن كلّ من الهمذاني والحريري هو المقامات؛ تلك المقامات التي تُخفي بين سطورها حياةً تصورها؛ فلكل قومٍ من الأقوام عاداتهم وصفاتهم التي تميّزهم عن الآخرين.

ولعل علاقة المقامات بالمجتمع علاقة قديمة، إذ نجد أنّ كلًّا من الهمذاني والحريري قد قدّما لنا عَبر مقاماتهما سجلًّا تاريخيًّا حافلًا حول مجتمعهما؛ فهي تصور لنا أحوال المعاصرين وأحوال العصر الذي عاشا فيه على عدّها وثائق تاريخية؛ فقد اشتركت مقاماتهما في تناول بعض العادات والتقاليد والمظاهر الاجتماعية السائدة أنذاك. وربّما كان فن المقامات فنًّا ملازمًا لحياة العامة لا سيما الكداة منهم؛ فهو يرصد طرائق عيشهم وسبل حيلهم في سبيل التمويه على الناس من أجل التكسّب. فمن العادات التي رُصدت في المجتمع العباسي - وكان أكثرها انتشارًا في المقامات - عادة الكدية بين أبناء طبقة العامة في ذلك العصر، ولا غرابة في ذلك كون المجتمع الذي عاش فيه كلّ من الهمذاني والحريري هو مجتمع النصف الثاني من القرنين الرابع

والخامس الهجريين امتدادًا إلى بدايات القرن السادس.

حيث رسم لنا التاريخ في تلك الحِقبة صورةً ممتلئةً بالفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار؛ بسبب انفصال بعض الولايات عن جسم الدولة العباسية واستيلاء بني بويه على مقاليد الحكم في بغداد عاصمة الخلافة. (مبارك، مازن، 1981م، ص43)

ومما لا شكّ فيه أنّ هنالك صلةً قوية بين الوضعين السياسي والاجتماعي في المجتمع الواحد، فالحياة السياسية لا بدّ أن يكون لها أثرٌ واضحٌ في المجتمعات.

يقال إنّ المقامات تُعد شكلًا قصصيًا من نتاج الظروف الاجتماعية التي أوجدتها البرجوازية العربية القديمة؛ فهي تصوّر واقع المجتمع العربي في لحظة مهمة من لحظاته الخطيرة؛ كون العصر الذي عاش فيه كلٌّ من الهمذاني والحريري عصر قلق وعدم استقرار وفتن وحروب ومكائد واحتيالات؛ فجاءت المقامات صورة صادقة معبرة عن هذا كلّه بوصفها شكلًا نثريًا يمتلك القدرة على التعبير عن منظومة القيم للمجتمع في هذه الحقبة من الزمن، بحيث لم يبلغ في مستواها فنٌّ نثريٌّ آخر من رسائل أو خطب في رسم هذه الصورة لحالة العصر. فكانت المقامات المرآة الصادقة للحياة الاجتماعية والركود الاقتصادي وحوادث القتل والتدمير والسلب.

وقد خصص الهمذاني نصيبًا من مقاماته للحديث عن اللصوص والمجرمين وقطّاع الطرق، ولعل خير مثال لقلة الأمن وكثرة اللصوص زمن الهمذاني ما ورد في مقامته الأسديّة إذ يُظهر لنا فيها الهمذاني نوعًا غريبًا من اللصوص وهم جماعةٌ من الفتيان لهم جمالُ منظرٍ وحُسن مظهر، يتقنون الرماية والنزال يقول فيها على لسان عيسى بن هشام: " إلى أن اتّفقت لي حاجة بحمص، فشحذتُ إليها الحرص، في صحبة أفرادٍ كنجوم الليل، أحلاس لظهور الخيل ". (الهمذاني، 2010م، ص48) وملخص المقامة أنّه يقابل الواحد منهم جماعة من المسافرين، فيتظاهر بأنّه غلامٌ هارب من خدمة سيده لغلظته عليه، ويعرض عليهم خدماته فيلمسون فيه النشاط والحيوية والإخلاص حتى إذا أنسوا إليه واطمأنّوا إلى أمانته، عمد إلى الحيلة والخداع، فوضع يده على أفراسهم وجرّدهم من أسلحتهم واستولى على أموالهم وقتل بعضهم وساق الباقين أمامه كالقطيع.

ومما ورد في السلب من قِبل قطّاع الطرق ما نراه في المقامة الموصليّة حيث يتعرض كلّ من عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري للسّلب ويشرفان على الهلاك مما أسرع بهما إلى بعض قرى الموصل؛ إنقاذًا لحياتهما فيقول عيسى بن هشام في ذلك: " وهمنا بالمنزل، وملكت علينا القافلة وأُخذ منا الرحل والراحلة، جرت بي الحشاشة إلى بعض قراها ومعي الإسكندريّ أبو الفتح ". (الهمذاني، 2010م، ص122) فكلّ منهما تعرّض للسطو وهما في موقف عصيب ينذرهما بالموت.

أراد الهمذاني من خلال مقاماته تصوير ذلك الجانب من الفوضى السياسية التي كانت سببًا رئيسًا ربّما في الفوضى أو اللاستقرار الاجتماعي حين تهاوت بغداد أمام فوضى الاضطرابات التي أنهكت الدولة وصار الخليفة ألعوبة تتقاذفه ظروفٌ غامضةٌ بعض الشيء، فنصّب البويهيون مَن أرادوا وعزلوا آخرين مقتصرًا بذلك دور الخلفاء على الشّكليات حيث لم يبقَ لهم على أرض الواقع إلا المظاهر كضرب العملة والخُطبة. ولم يكن الوزراء أسعد حالًا، فقد تكالب عليهم الناس، وكان الهمذاني يعينهم في ذلك عندما أشار إلى هوان أولئك الوزراء بسبب كثرتهم قائلًا في المقامة التميميّة:" ولم يَزَلْ يردُ الواحدُ بعدَ الواحدِ، حتى امتلأتْ العيونُ من الحاضرينَ وثَقُلُوا على القلوب ".(الهمذاني، 2010م، ص267)

إنّها صورةٌ تكاد تكون واضحةَ المعالم بعض الشيء للواقع في العصر العباسي - حقبة الدراسة - إنّه مجتمعٌ مسكونٌ بالخوف والفقر والجوع وكلّها ليست سوى عوامل إذلال للنفس الإنسانيّة. ولنا أن نتصور مدى الخوف الذي لحق بالناس عند إعلان الهمذاني عن تلك الصورة من وراء أستار عدة أولها؛ إنّ الخبر مرويّ عن راوٍ هو عيسى بن هشام وإنّ هذا الخبر قيل في البادية بعيدًا عن جوّ الحاضرة، ثم إنّه جاء على لسان فتىً بدويّ وعلى نحو عارض، كلّ ذلك جاء في المقامة الأسوديّة، فبعد أن هرب عيسى بن هشام بعد اتهامه بمالٍ قد أصابه التجأ إلى خيمة أمامها فتىً يلعب بالتراب مع الأتراب ومع هذا يلجأ إليه عيسى بن هشام قائلًا: " يا فتى العربِ أدّتني إليك خِيفةً. فهل عندك أمْنٌ أو قِرى؟ قال: بيتَ الأمْنِ نزلتَ، وأرضَ القِرى حللتَ ". (الهمذاني، 2010م، ص159)

هذا وقد عرض الهمذاني في المقامة الوعظيّة لظلم الطغاة من أصحاب الغنى والجاه، وزهّد بالغنى المشبوه في مجتمعه؛ ذلك الغنى القائم على لصوصية النهار والليل ولهذا فهو يفضّل الفقر على هذا النوع من الغنى قائلًا على لسان الاسكندري: " ألا وإنّ الفقرَ حِليةُ نبيكم فاكتسوها، والغِنى حُلَّةُ الطغيان فلا تَلبسُوهَا ". (الهمذاني، 2010م، ص152) ولعل سخط الهمذاني على الزمن وناسه عامٌ وعارم، تشوبه سوداويّة قاتمة؛ فهو يرى الكأس فارغها إلا نصفها.

أما عن تناول كلّ من الهمذاني والحريري للجانب الاقتصادي في مجتمعهما، فالمقامات مليئة بفكرة التباين الاقتصادي الذي جرَّ إلى التباين الاجتماعي، إذ يشكّل الاقتصاد بُعدًا حيويًا، وعمقًا ضروريًا لأي نظام سياسي يسعى إلى البقاء والاستمرار؛ فقد أدى الخلل الاقتصادي الذي عانت منه الدولة العباسية في حِقبة الدراسة إلى نشوء جماعات تشترك جميعها في همّ واحد هو الشعور بالظلم والرغبة في تحقيق العدل بين الناس. (خصاونة، 1997م، ص53) هذا هو واقع المجتمع الذي عاشا فيه، فوضى اقتصادية، وسوء توزيع للأموال، وانصراف إلى الملذات.

متناولًا الهمذاني في ذلك الكثير من صور الطبقية الصارخة في مجتمعه تلك الصور التي تنقل لنا الفروق المتباينة في المستويات فتتعدد هذه الصور التي تعرض الفارق في المستوى الاقتصادي بين الأثرياء والفقراء المعدمين الذين يأكلون الثرى.

ولم يقتصر تناوله للتباين الطبقي على مستوى الأطعمة والمأكولات بل تعدد ليشمل معظم جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية على حدّ سواء، فيرى

الهمذاني في واقع تركّز المال في أيدي جماعة دون أخرى قناعة أنّ الغنى في مجتمعه مشبوه وأنّ الأغنياء تحوطهم علامة استفهام كبرى (من أين لك هذا؟) فهو يرى أنّ الغنى يتحصّل بواحدة من ثلاث طرق، السّلب، أو العثور على كنز، أو التضحية بالعِرض وهو ما أشار إليه في المقامة الأذربيجانيّة والمقامة الأسوديّة، ولعله كان محقًّا في ذلك وإنّه لأمرٌ لافتٌ أن يغتنيَ شخصٌ غنىً غير طبيعي في مجتمعٍ يعاني الفقر وتعطل سبل الرزق، وتسيطر عليه حالة من الكساد والفوضى.(خصاونة، 1997م، ص57)

وإنّ ما حلّ من كساد اقتصادي وفقر في المجتمع، لم يكن بسبب الترف والبذخ والفساد الذي كان يعيشه ولاة الأمر فحسب بل كان بسبب الظلم الذي وقع على الفقراء أنذاك. هذا وقد ضرب الهمذاني مثلًا حيًّا في الإسراف ونتائجه في المقامة الصّيمريّة حتى إنّها لتُعد نموذجًا حيًّا ناطقًا لمغزى ما أراد الهمذاني أن يقوله وهو دعوة صادقة منه إلى الناس أن يقتصدوا في كلّ شيء وليعلموا أنّ الأمر إذا وقع صعب حلّه وربّما استحال، وإذا حُلّ كلّف الكثير من الشّقاء والتّعب.

غير أنّ هذا الأمر قد شغل الهمذاني في مقاماته كثيرًا عبر شخصيتيه الرئيستين؛ عيسى بن هشام، وأبي الفتح الإسكندري. ففي معظم الأدوار التي مثلها عيسى بن هشام كان الشخصيّة الغنيّة المترفة صاحبة الجاه، الآمنة المستقرّة، وكان أبو الفتح الإسكندري يمثّل شخصيّة الفقير، المحتاج، المعذّب، الضّارب في الآفاق سائلًا عن الرغيف والدّرهم كما هو الحال في المقامة البصريّة. فيمتلك عيسى بن هشام المال ووسائل اللهو واللباس في حين يظهر أبو الفتح الإسكندري معدمًا، مشرّدًا، قد هدّ همّته عياله في زمن صعب قاسٍ يصعب على الإنسان تدبير شأن نفسه وحده. كما تعدُّ المقامة المضيريّة نموذجًا رائعًا للكشف عن الجوانب الطبقيّة الكريهة التي يعاني منها مجتمع الهمذاني فكان التاجر محدث النعمة لسان حالها، فلعل كلّ ما ذكره التاجر كان " استعراضًا " أظهر من خلاله الهمذاني كلّ ما أراد أن يكشفه من طبقيّة تنعم بها فئات محدودة على حساب أكثريّة تنتظر اللقمة ولا تحصلها. فقد كان الفقر طابعًا واضحًا في المجتمع العباسي زمن الهمذاني، إذ تمثل المقامة السّاسانيّة صورة حيّة ناطقة بحاجات الفقراء، تلك الحاجات التي لم تترك شيئًا إلا طلبته من خلال ما يسمى بالكدية التي مثّلت ظاهرة اجتماعية وأثرًا بيّنًا من آثار الفقر.

وإنّ الهمذاني يحدثنا عن الكدية حديثًا طريفًا يبتكر له الأساليب ويعدد المذاهب، فلا يترك نوعًا من أنواعها إلا ويأتينا بنموذجٍ منه، ولعل أساليب الكدية هي نفسها في كلّ زمان ومكان وكأنّ المكدين قد توارثوها جيلًا عن آخر؛ فمن المكدين مَن يتجول في الأسواق رافعًا صوته في الاستجداء من خلال الإنشاد أو الدعاء لأحدهم.

ومنهم مَن يتظاهر بالمرض ويمثل دور المصاب المبتلى فيضمّد ساقه أو يشدّ يده إلى عنقه أو يعصب رأسه ويعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنو أحد المارّة منه، ومنهم مَن يتظاهر بالعمى كالذي حدثنا عنه الهمذاني في المقامة المكفوفيّة، فهو أعمىً مكفوف لكنّه سرعان ما عرف الدينار عند لمسه، مما جعل عيسى بن هشام يشكّ في أمره قائلًا: " وتبعته فعلمتُ أنّه متعامٍ لسرعة ما عرف الدينار ". (الهمذاني، 2010م، ص96)

ومنهم مَن يكتب حاجته على أوراقٍ يوزعها على الناس في الطرقات، فمن الأحوال التي يُحبب فيها الخير إلى النفوس أن يكون الإنسان في جوّ ديني تسوده روح البذل والتعاون أو يكون منصرفًا إلى تذكّر الآخرة والزّهد في الدنيا، راغبًا في الأجر والثواب وهو في مثل هذه الأحوال أقرب إلى الاستجابة وأسرع إلى السّخاء، وقد عرف المكدون ذلك فرابطوا عند أبواب المساجد، أو دخلوها على الناس فقدموا لهم وذكّروهم بالآخرة.(مبارك، 1981م، ص91) ومنهم مَن يطرق عليك الباب ليلًا ليزعُم أنّه ابن سبيل مقطوع، وآخرُ يلجأ إلى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه، فهو لا يتحدث معك عن جوعه وفقره لأنّ عطف الأبوّة أنساه ذلك، وإنّما يحدّثك عن جوع أولاده وعريّهم.

وإننا لنجد أبا الفتح الإسكندري يتعامل مع مهنته الكدية بتفاعلٍ وحرارةٍ؛ فهو مؤمنٌ بها إيمانًا قاده إلى النّجاح حتى لقد تمكّن من الاحتيال على إبليس في المقامة الإبليسيّة وهو مرتاح لما يفعل، مطمئن إليه، يطلب من الناس عدم لومه على ما يفعل، بل هو داعٍ مخلصٍ للكدية ومروجٍ صادقٍ لها. غير أنّ البخل الذي سجّل ظاهرةً لافتةً زمن الهمذاني ربّما كان السبب في قلة النّوال، فبعد أن ذاق مرارة الفقر وأحسّ بقيمة الدرهم، أخذ يوصي ابنه أن يبذل جهده لتوفير المال ما أمكنه في مقامته الوصيّة، ولعل كثرة البخل راجعٌ إلى الظروف الاقتصادية السيئة والمستقبل غير المأمون. وقد ألمح الهمذاني إلى جو البخل السائد في المقامة العراقيّة وذلك عندما رأى فتىً في أطمارٍ على الشّط " يسأل الناس ويحرمونه ". (الهمذاني، 2010م، ص164) وفي المقامة الحمدانيّة حين ظهر أبو الفتح الإسكندري وبشهادة أحد الخدم " يسأل الناس ويسقي اليأس ". (الهمذاني، 2010م، ص174)

فعندما تضيق الحال ويكثر البخل ولا يعود يجدي التّكدي والسؤال؛ تتفشّى ظواهرُ اجتماعية تُعدّ بمثابة ردة فعل لمثل تلك الأحوال؛ كالسّلب والنزاعات الأسرية التي تنمو وتزداد في ظل غياب أجواء الاستقرار المادي والنفسي. فضلًا عن فساد القضاء الذي عَمد الهمذاني إلى تصويره، ذلك القضاء الذي كان يُباع ويُشترى في زمنه وهو ما ظهر ماثلًا أمامنا في المقامة النيسابوريّة حينما جعلها الهمذاني للحديث عن فساد القضاة وطرقهم في النّهب؛ حين استلم القضاء مَن هم ليسوا أهلًا له وصار بضاعةً تُباع وتُشترى فقد وليه مَن لا يعرف أسراره وحمل الأمانة مَن لا يدري مقدارها والأمانة عند الفاسق خفيفة المحمل على العاتق، حينما وصف القاضي بقوله: " هذا سوسٌ لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولصٌ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف... ".(الهمذاني، 2010م، ص227)

ولربّما كانت مقامات الهمذاني استجلاءً لحياته البائسة التي كان يحياها ولأسفاره التي كان يقوم بها وهي أشبه بحياة شيخه ابن فارس التي اجتمعت معها

في بعض الأطوار؛ ولعل ما عمّق غربة الهمذاني وبؤسه وضياعه أنّه عربيّ تقلّب في وسط فارسيّ وأنّه انحاز إلى المذهب السّني في بيئة سيطر عليها المذهب الشّيعي كما تأثر في تصويره بحياة البائسين ممّن كان يراهم في حِلّه وترحاله وبمشاهدة المكدين من الساسانيين والغجر الذين اتخذوا الكدية والحيلة لكسب العيش طريقةً وفنًّا.(دقيش، 1435هـ، ص7) ولعل الهمذاني لم يكن متأثرًا حين أنشأ هذه المقامات بأحدٍ من الكتّاب الذين سبقوه، وإنّما كان متأثرًا في واقع الحياة العامة؛ بالبؤس والفقر والحرمان تلك الظواهر الاجتماعية التي حملت كثيرًا من الناس على التّكدي والتّسوُّل بمختلف الوسائل والحيل. فجاءت مقاماته خير معبّر عن ذلك العصر الذي اضطربت فيه الأخلاق والسلوكات والدول والأفراد والجماعات.

فضلًا عن إشارته إلى انتشار عادة التّسول بين أبناء المجتمع بسبب الفقر والحاجة في غير موضع من المقامات مما ورد في المقامة المجاعيّة أو القرديّة؛ فمن الفقراء مَن كان يعمل قرّادًا يرقّص قرده ليُضحك الناس ويمدّونه بالأموال لسدّ رمق العيش، جاء ذلك على لسان عيسى بن هشام عندما كان بمدينة السلام - بعد أن أدّى فريضة الحج - وقد خرج إلى شاطئ دجلة، وإذا بجمع من الناس " مزدحمين يلوي الطرب أعناقهم، ويشقّ الضحك أشداقهم... ".(الهمذاني، 2010م، ص113) فما أن استطلع الأمر فإذا هو قرّادٌ يرقّص قرده.

إضافة إلى تناول الهمذاني لحياة القوم ووصفهم في دورهم ومساجدهم وأسواقهم وحوانيتهم، مصوّرًا لنا الكثير من أخلاقهم، ومعرّفًا بالعديد من فئاتهم. فكان بارعًا في جعل المقامات مسرحًا أقامه على بطولة أبي الفتح الإسكندري جاعلًا أبا الفتح في كلّ مقامةٍ من مقاماته أنموذجًا لفئةٍ من الناس يُلبِسه لباسها وينطقه بلسانها؛ حتى كان لأبي الفتح في كلّ مقامةٍ دورٌ، وهو في كلّ دورٍ من أدواره إنّما يمثل رجلًا من رجال عصره ومجتمعه.(مبارك، 1981م، ص43)

هذا الهمذاني يصوّر لنا عَبر مقاماته العديد من عادات وتقاليد المجتمع العباسي - الذي عاشه وعاصره في مختلف الميادين - وعُرف بها أبناء الطبقة العامة في حِقبة الدراسة كالسذاجة وسرعة التصديق؛ كما رسمها في مقامته الحِرزيّة، فلعلنا في حرزيّة الهمذاني نجد خير مثالٍ لبيان ما كانت عليه عقلية العامة أو السَّواد الأعظم من الناس في تلك الفترة من سرعة التصديق أو السذاجة لكلّ ما يسمعونه. ومَن أسرع إيمانًا وتصديقًا ممّن يعتقد أنّ حرزًا ينجي من الغرق؟ وليته حرزٌ متصلٌ بأسباب الدين، أو كان آياتٍ من القرآن الكريم، إذًا لكان للقوم عذرهم لما يوحي به الإيمان بالدين من الاطمئنان وما يلقيه في النفس من سكينةٍ، ولكنه حرزٌ مصونٌ بالديباج والعاج كما يقول عيسى بن هشام: " وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباجٍ فيها حُقّة عاج قد ضُمّن صدرها رقاعًا... ".(الهمذاني، 2010م، ص139)

كذلك رصده أو تصويره لعادات الناس في الأحزان وإقامة المآتم مما ورد في المقامة الكوفيّة والموصليّة، وتقليد الآخرين أو تقمّص الشخصيات المتعددة مما جاء في المقامة الوعظيّة، والوصيّة، والحلوانيّة، والقرديّة، وكثرة الأسفار وحب التنقل بين البلدان كما هو الحال في الأذربيجانيّة، والحرزيّة. وتربية الحمام كما في الرصافيّة. وأخلاق القوم وتقلّب الأحوال مما ورد في المقامة الخمريّة والنيسابوريّة. وكذلك عادات دخول الحمامات في المدن والأماكن العامة، ومَن في هذه الحمامات من العمّال الذين يقومون على خدمة نزلائها من دلك الأعضاء ووضع الطين على بعضها معتقدين أنّ ذلك يريح الأعضاء من عناء الترحال والمشقة، وقد جاء ذلك على لسان عيسى بن هشام حين عاد من أداء فريضة الحج وشعر أنّه بحاجة إلى دخول الحمام وحلق الرأس وعمل حجامة قائلًا في المقامة الحُلوانيّة: " لمّا قفلتُ من الحجّ فيمَن قفل، ونزلتُ حُلوان مع مَن نزل، قلتُ لغلامي: أجدُ شعري طويلًا. وقد اتّسخ بدني قليلًا، فاختر لنا حمّامًا ندخلُهُ، وحجّامًا نستعمله ". (الهمذاني، 2010م، ص197)

ومن بين المظاهر الاجتماعية التي تصورها المقامات تلك المظاهر الخاصة بالحياة اليومية ومنها الأطعمة التي كانت شائعة في تلك الفترة وهو ما أشار إليه الهمذاني في مقامته المضيريّة التي جاءت مبينةً لنا نوع من أنواع الأطعمة المعروفة في زمنه وهي " المضيرة ". وما أورده في المقامة البغداديّة التي يمكننا من خلال قراءتها تعرُّف طبيعة الأطعمة المنتشرة في زمنه ومنها " الأزاذ " - وهو نوع من أنواع التمر الجيد - وغيرها الكثير من الأطعمة فمن خلال هذا التنوع الغذائي الوارد في العديد من مقامات الهمذاني نستطيع القول إنّ هناك مَن يستطيع دفع ثمن كلّ الطعام على اختلاف أنواعه، مقابل وجود فئة لا تملك دفع ثمن طعامها اليومي وكنتيجةٍ طبيعيّةٍ لا بدّ من ظهور فئة المتسولين الذين يسعون للحصول على رزقهم بأية وسيلة ومهما كان الثمن.

مقدّمًا الهمذاني بذلك صورةً واضحةً لمجتمعٍ اجتمعت فيه الكثير من المتناقضات غير أنّها التناقضات التي جاءت منسجمةً وطبيعة الحياة؛ كوجود الزهد والورع إلى جانب اللهو والمجون. فضلًا عن رسمه صورة شاملة ومرعبة لفساد القضاء والقضاة مما ورد في المقامة النيسابوريّة وصورة لمحدثي النعمة والانتهازيين في المضيريّة، إضافةً إلى المقاطع المتنوعة من حياة المجون والسّكر واللهو في مقامته الخمريّة. إذ جمع الهمذاني في مقامته الخمريّة بين أهل المسجد وأهل الحانة، فجاءت مقامته ممثلةً لطائفتين في مجتمعه؛ طائفة الشباب المنكبّين على الخمرة وطائفة الأتقياء المحافظين، وقد حدثنا الهمذاني عن شباب القوم ومجالس لهوهم وعبثهم، فلم يُغفل تصوير الحياة العابثة اللاهية التي يعيشونها وهو ما أورده على لسان عيسى بن هشام حين قال: " جعلتُ النّهار للناس والليل للكاس، واجتمع إليّ في بعض لياليّ إخوان الخلوة ذوو المعاني الحلوة، فما زلنا نتعاطى نجوم الأقداح حتى نفد ما معنا من الرّاح ".(الهمذاني، 2010م، ص267)

متناولًا الهمذاني في الوقت ذاته صورة الأتقياء المحافظين على الصلاة في مساجدهم، جاعلًا أُولئك المصلين يتألبون على المخمورين بعد أن فاحت منهم ريح الخمرة في المسجد، قائلًا على لسان عيسى بن هشام: " فلما أخذنا في السّبح ثوّب منادي الصبح، فخنس شيطان الصبوة وتبادرنا إلى الدعوة، وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام ". (الهمذاني، 2010م، ص270) كما حدثنا عن الوعاظ وما كان في وعظهم من نصح وإرشاد وحث على الزهد والإيمان وكأنّه يصور

لنا بذلك كلّ ما أخذ يتغلغل في ذلك المجتمع من شكّ وإلحادٍ؛ فهو يدعو إلى الالتفات للمشككين وآرائهم ومذاهبهم فيقول على لسان أحد الوعاظ: " كذبت ظنون الملحدين، الذين جحدوا الدين وجعلوا القرآن عِضين ". (الهمذاني، 2010م، ص152)

ولعلنا إذا أنعمنا النظر في مقامات الهمذاني وجدنا أنّها لم تغفل جانبًا مهمًا من جوانب الحياة الاجتماعية كظهور فئة من الناس يُطلق عليهم اسم " الشّطار " وهم الذين يقطعون الطريق ويستولون على أموال الناس " وقد وقع الهمذاني نفسه ضحية لهذه الفئة من الناس من قطاع الطرق وهو في طريقه إلى نيسابور، إذ خرج عليه قطاع الطرق فجأة وسلبوه كلّ ما يملك ".(دقيش، 1435هـ، ص35) وإنّ ما حدث معه ربّما جعله يتأثر في هذه الظاهرة الاجتماعية ويجسدها في أغلب مقاماته، فنجد أكثر مقاماته تدور حول قطّاع الطرق وهو ما رأيناه في المقامة الموصليّة حيث يتعرض كلٌّ من عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندري للسلب ويشرفان على الهلاك مما أسرع بهما إلى بعض قُرى الموصل إنقاذًا لحياتهما فيقول عيسى بن هشام: " لمّا قفلنا من الموصل، وهممنا بالمنزل، ومُلِكتْ علينا القافلةُ، وأُخذ منّا الرَّحلُ والرَّاحلةُ، جرت بي الحشاشةُ إلى بعض قُراها ومعي الإسكندريُّ أبو الفتح ".(الهمذاني، 2010م، ص115)

جوانب متعددة ومتنوعة رسمها الهمذاني للواقع في مقاماته تمثّلت في البؤس والفقر، والأخلاق الفاسدة، والمكر والدهاء في سبيل الوصول إلى المال أو الطعام، إضافةً إلى مجالس العلم وما فيها من مناظرات؛ فمنها ما يتصل بأسلوب الهمذاني وفنّه في التّلاعب بالألفاظ كمقامته الشعريّة التي حدثنا فيها عيسى بن هشام قائلًا: " كنتُ ببلاد الشّام وانضمَّ إليّ رفقةٌ، فاجتمعنا ذات يومٍ في حلقةٍ، فجعلنا نتذكّر الشعر، فنورد أبياتَ معانيه ونتحاجى بمعاميه، وقد وقف علينا فتىً يسمع وكأنّه يفهم، ويسكت وكأنّه يندم. وقال أين أنتم من تلك الأبيات وما فعلتم بالمعمّيات، سلوني عنها! فما سألناه عن بيت إلا أجابه ولا عن معنًى إلا أصابه ". (الهمذاني، 2010م، ص252) ولعل هذه المقامة خير دليل على حبّ القوم للمجالس الأدبية والتنافس في حلّ المعمّيات الشعريّة، مما يحتاج إلى اطّلاع واسع وحفظ كثير.

ومنها ما يتصل بآراء الهمذاني في الأدب والنقد كما جاء في بيان رأيه في العديد من الشعراء والكتّاب من خلال بعض المحاورات التي كانت تدور في المجالس الأدبية، إذ يخص الهمذاني الجاحظ في مقامةٍ يسميها " بالجاحظيّة " يتعرض فيها للجاحظ ويحاول أن ينال منه حين قال على لسان أبي الفتح: " إنّ الجاحظ في أحد شقّي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف، والبليغ مَن لم يقصّر نظمه عن نثره، ولم يُزْرِ كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعرًا رائعًا، قلنا: لا. قال: فهلمّوا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات ". (الهمذاني، 2010م، ص90)

لقد كانت المقامات عامةً مسرحًا للتقليد إذ نجد أبا الفتح يتقمّص في كلّ منها شخصيّة من الشخصيّات يقلّدها ويقوم بكلّ أدوارها: فهو تارةً واعظ تقيّ، وتارةً شحّاذ، وتارة تاجر، وأخرى مجنون. وهو متقنٌ في كلّ تلك الحالات حتى ليخدعك عن نفسه وحقيقته بل ويخدع صديقه وأقرب الناس إليه. فهو في المقامة الوعظيّة رجلٌ مهيبٌ أشيب الشعر ينطق بالحكمة. وفي الوصيّة تاجرٌ حريصٌ يعرف كيف يكتسب المال ويريد أن يحذو ابنه حذوه. ونراه يمثّل دور الشّحاذ الأعمى، فيُخدع الناس به حتى يستدرّ عطفهم وشفقتهم. (مبارك، 1981م، ص104)

وهو ذاته ما أودعه الحريري في مقاماته حينما رسم لنا صورة واضحة المعالم للحالة الاقتصادية المتردّية وازدياد الهوة بين الفقراء والأغنياء مما كان سببًا في ظهور فئات جديدة في المجتمع نابعةً من الشعور بالظلم والفقر، حيث بلغ الفقر مداه، وكانت حالات الفقر تظهر بوضوح في المناسبات الاجتماعية خاصة في الأعياد؛ إذ كان يتعذر على الكثيرين تأمين الملابس والألعاب لأطفالهم. ونشأت مجموعةٌ من الجماعات كأصحاب الكدية، واللصوص، وحركات العيارين والشّطار؛ نتيجة للظروف التي أحاطت بهم فقد وصلت سوء الحال إلى مواجهة الفقر باللجوء إلى اللصوصيّة، أو التّحول إلى الكدية أو التّطفل أو اصطناع المرء للزهد والتّصوف فيلبس رثّ الثياب، ويقتات بالقليل.

وصف الحريري هذه الفئة من العامة في مقاماته بأنّهم الفئة المغلوبة على أمرها في أيّ مجتمع، وجعلهم هدفًا سهلًا للنيل منهم، وسلب أموالهم، وهو ما نجده في مقامته الصّنعانيّة حينما اتخذ السّروجي من الدين ستارًا ليخدع العامة، فبعد أن ظهر لهم بصفة الناصح الواعظ بانت سريرته؛ فإذا هو بين طعامٍ وشرابٍ وقد همَّ بالانصراف، فقام القوم وأعطوه المال، وعزم على الرحيل، قال الحارث بن همام في وصف الموقف: " ثم إنّه لبَّد عجاجته، وغيّض مجاجته، واعتضدّ شكوته، وتأبط هراوته، فلما رنت الجماعة إلى تحفّزه، ورأت تأهبه لمزايلة مركزه أدخل كلٌّ منهم يده إلى جيبه، فأفعم له سجلًا من سيبه، وقال: اصرف هذا في نفقتك، أو فرّقه على رفقتك، فقبله منهم مغضيًا، وانثنى عنهم مثنيًا، وجعل يودع مَن يشيعه ". (الشريشي، 2006م، جـ1، ص50)

فقد رصد لنا الحريري عادات بعض أبناء ذلك العصر الذي عاش فيه، ما اتفق فيه مع الهمذاني وما اختلف لنتبيّن مدى الاختلافات التي طرأت على منظومة قيم المجتمع على امتداد زمنهما؛ كحديثه عن المال والثراء الفاحش عند بعضهم وما يقابله من فقر مدقع وقلة الطعام واللباس عند آخرين، وكيف أنّ المال قد طغى على القيم وأصبح هو المقياس في تعامل الناس مع بعضهم البعض، في حين وصلت حالة البؤس والفقر بآخرين إلى جعلهم يتمنون الموت لأنفسهم ولأطفالهم لما للفقر من آثار سيئة على النفس الإنسانيّة؛ كالذلّ والهوان، فهذا الحارث إبن همام في مصلّى برقعيد لأداء صلاة العيد، وإذا برجلٍ عجوزٍ يقود امرأة وقد ظهرت عليهما آثار الفاقة والحرمان فلما وصلا إلى المصلى جلس الرجل وقامت المرأة بتوزيع رقاع على المصلين كُتب عليها بعض الأبيات الشّعريّة التي يشرح فيها الرجل عوزه وفقره، وفيها يتمنى - ذلك العجوز - لو مات أطفاله قبل أن يصيبه الفقر وهو ما أورده الحريري في مقامتة البرقعيديّة على لسان الحارث بن همام في وصف المشهد: " وحين التأم جمعُ المُصلّى وانتظم، وأخذ الزّحام بالكظم. طلع شيخٌ في شملتين، محجوب المقلتين، وقد اعتضدَ شبه المخلاة، واستقاد لعجوزٍ كالسّعلاة، فوقف وقفة متهافتٍ وحيًا تحيّة خافتٍ، ولمّا فرغ من دعائه، أجال خمسَه في وعائه، فأبرز رقاعًا قد كتبنَ بألوان

الأصباغ في أوان الفراغ، فناولهنّ عجوزه الحيزبون، وأمرها بأن تتوسم الزبون ".(الشريشي، 2006م، جـ1، ص190)

فالراوي يصف حدث العيد ببلدة برقعيد، فبعد أن عزم على الرحيل منها، شمَّ بوادر العيد أي مقدمات العيد من بيع وشراء، ولباس وزينة، فكرِهَ الخروج من المكان، وبعد أن قدِم العيد بصلاته وزكاته لبس الثّياب الجديدة على ما جرت به العادة بين الناس وبرز للاحتفال معهم بإقامة الصلاة، وفي زحمة الناس واكتظاظ الصفوف ظهر السّروجي متنكّرًا، فقطع الراوي وصف الاحتفال بالعيد؛ لأنّ مقتضى الحال يشير إلى دخول ما يخدم المقامة منذ دخول السروجي وبداية خِداعه. فهو قد لبس ثوبين وغطّى عينيه كأنَّ به عمىً، جاعلًا على عضده عصا ومعه عجوز كأنّها أنثى الغول حيث كانت تساعده في عرض الرقاع للتكسب بها.

إضافةً إلى تناوله لأثرٍ آخر من آثار الفقر وهو هجر الزوجة والأولاد والهروب عنهم؛ كي لا يراهم يتضورون جوعًا، لعل الأغنياء يرقّون لحالهم وينفقون عليهم كما هو الحال في مقامته الكوفيّة مما ورد على لسان السّروجي واصفًا حاله: " إنّ مرامي الغربة، لفظتني إلى هذه التربة وأنا ذو مجاعةٍ وبوسى، وجرابٍ كفؤاد أم موسى، فنهضتُ حين سجا الدُّجى. على ما بي من الوجى لأرتاد مضيفًا، أو أقتاد رغيفًا، فساقني حادي السّغب... ". (الشريشي، 2006م، جـ1، ص142)

ومن الفقراء مَن تظاهر بالعرج لكسب ودّ الأغنياء وأهل الثروة واليسار، ومنهم مَن غشي المساجد لطلب العون والمساعدة من المصلين، وقد يتوجه الفقير لطلب المساعدة من الوالي كما جاء في أنّ الحارث بن همام كان بحضرة والي مرو، إذ حضر السّروجي في ملابس رثة وأخذ يمدح الوالي بأنّه من أهل الجود والكرم والعطاء والإحسان وهو ما رأيناه في المقامة المرويّة، وقد تطلب المرأة العون والمساعدة؛ بسبب ما أصابها وأطفالها من العوز والحاجة.

وإننا لنجد ذكر الفقر في غير موضع من مقامات الحريري؛ منها ما كان على يد الحارث بن همام، وأبي زيد السّروجي؛ فالحارث بن همام في المقامة الرّقطاء قد دخل سوقي بغداد وهو فقير حين قال: " حللتُ سوقي الأهواز، لابسًا حُلة الإعواز، فلبثتُ فيها مدّةً، أكابدُ شِدّةً، وأزجي أيامًا مسودة ".(الشريشي، 2006م، جـ2، ص284) بينما نجد أبا زيد السّروجي قد ذكر أمر الفقر في معظم خدعه فكان دائمًا ما يذكر الفقر والبطالة وما يعانيه ولكنّه قلما يجد الحارث بن همام ويخبره بالأمر على نحو ما حدث في المقامة الفرضيّة، يقول: " اعلم أنني بتُّ البارحة حليف إفلاس، ونجيّ وسواس ".(الشريشي، 2006م، جـ1، ص409)

وكنتيجةٍ طبيعيّة لذلك كلّه فإننا نجد أنّ الكدية كادت أن تغلب على معظم مقامات الحريري، فكان بطلها السّروجي متفنّنٌ ومتقنٌ للخداع والمكر، فتارةً نراه في ثوب الفقير، وتارةً نراه في ثوب الزاهد، حتى وصل به الأمر أنّه تخفّى في ثوب امرأة؛ ليسلب المال، وهو في ذلك كلّه يُظهر براعته بلسانه وكثرة تقلّب أحواله كما حدث في المقامة الصنعانيّة، أو الدينارية، أو الكوفيّة، أو السَّاسانيّة التي تحدّثت عن نسب أبي زيد السّروجي حيث أوصى ابنه وهو على فراش الموت وفضّل له الكدية والحيلة والخداع على سائر المهن، ثم نصحه وأوصاه بأن يكون صاحبها ووريثه فيها حين قال مخاطبًا ابنه: " يا بنيّ إنّي جربتُ حقائق الأمور، وبلوتُ تصاريف الدهور، فرأيتُ المرء بنشبه لا بنسبه، والفحص عن مكسبه لا حسبه ". (الشريشي، 2006م، جـ3، 445) ومما لا شكّ فيه أنّ مقامته السّاسانيّة جاءت لتوضح لنا مدى أهمية الكدية لدى السّروجي حيث فضّلها على كلّ صنعة قائلًا: " وأمّا حِرفُ أُولي الصّناعات فغيرُ فاضلة الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات، ومعظمها معصوبٌ بشبيبة الحياة، ولم أرَ ما هو باردُ المغنم، لذيذ المطعم، وافي المكسب، صافي المشرب، إلا الحِرفة التي وضع ساسان أساسها ".(الشريشي، 2006م، جـ3، 446) والقارئ لهذه المقامة يجد أنّه قد أظهر لكلّ حِرفة عيبها وكسادها ومخاطرها إلا الكدية التي لا تكسد ولا تبور، وهو لهذا السبب كان حريصًا على نقل الخبرة إلى ولده من بعده، فهو يرى أنّه امتدادٌ له.

وإننا نجد الحريري قد تأثّر في ظروف عصره من حروب ومكائد دعت إلى إحياء حركة الوعظ وردع الظلم والفساد والدعوة إلى الهداية والرشاد فهو لم يترك مظاهر الحياة تمرّ به مرور الكرام، بل أخذ يرصد لكلّ ظاهرة معللًا أسبابها ومستخلصًا نتائجها محملًا الناس والسلطات مسؤولية ما يحدث من دمارٍ وفوضى في الحياة الاجتماعية فاضحًا ذلك بأسلوب نادرٍ ولاذعٍ وساخر، إذ لم يكن راضيًا عما يدور حوله من ظلم وتعسف من الحكام والولاة والقضاة بل نجده ساخطًا على الظلم السياسي وعلى النفاق الاجتماعي غير أنّه لم يكن يهاجم الحكام إلا بقدر محدود، فلم يورد في مقاماته اسم أحد من الخلفاء أو الحكام أو الأمراء، باستثناء ذكره لبني الفرات الذين اشتهروا بالكتابة والبراعة، وتقلّد الوزارة. هذا وقد أشار إلى الأمراء والحكام دون ذكر أسمائهم؛ فهو لا يريد أن يأتيَ على ذكر اسم الحاكم ولا القاضي لأنه يفضّل عدم الاصطدام المباشر مع هذه الفئات لأسباب سياسية وربّما خوفًا على نفسه.

إنّ نظرة الحريري للقضاة لم تكن نظرة توقير واحترام فالانطباع العام الذي يلمسه القارئ من مقاماته، أنّ القضاة لم يكونوا على مستوى المسؤولية من العدل في صورته المثلى، فهم يميلون عن الحق والصواب تبعًا لرضاهم أو سخطهم على المتقاضين. فضلًا عن أنّ القضاة في كلّ المقامات سذّج مخدعون تنطلي عليهم ألاعيب أبي زيد السّروجي وخدعه، ولا يستطيع أحدٌ منهم أن يكشف حقيقته بنفسه وإن حدث ذلك فبغيره، ولكن بعد فوات الأوان كما حدث لقاضي الرملة إذ لم يكتشف حقيقة أبي زيد وزوجته إلا بعد أن منحهما ألفي درهم.

وإنّنا نرى ذلك أيضًا في تلك الصورة التي رسمها للقاضي في مقامته التبريزيّة؛ فهو إضافة إلى انخداعه بحيل أبي زيد وزوجته ضائق بعمله غير مُقبل عليه، سريع الغضب، يفتقر إلى ما يجب أن يتصف به القاضي من الصبر وسعة الصدر.

ومن المظاهر الاجتماعية التي برزت في مقامات الحريري التقيد بلباس معين في الصغر والتميّز بآخر في الشباب مما ورد في المقامة الحلوانيّة على لسان

الحارث بن همام حين قال: " كلفت مذ ميطت عني التّمائم، ونيطت بي العمائم بأنّ أغشى معاني الأدب، وأُنضي إليه ركاب الطّلب ". (الشريشي، 2006م، جـ1، ص56) ومنه فالطفل وهو صغير وجب عليه تعليق التمائم وإذا ما أصبح شابًّا وجبَ عليه أن يلبس العمامة وهو عرفٌ ساد ذلك العصر، فبعضهم اعتقد بنفع التميمة لوقاية الأطفال وحمايتهم من الشيطان والجان فإذا ما شبّ وكبُرَ أُزيلت عنه تلك التمائم وأُلبس العمامة، وهذا ما لم يظهر لنا في مقامات الهمذاني.

إضافة إلى تصويره لعادة ازدراء الرجل بسبب رثاثة ثيابه، جاء ذلك عندما كان الحارث بن همام ومجموعة من أصدقائه على ظهر سفينة فيها رجل رثّ الثياب فازدروه لرثاثة ثيابه، ثم تبين لهم أنّ ذلك الرجل هو السّروجي، صاحب الفصاحة والبيان، فندموا على ما صدر منهم وطلبوا منه البقاء معهم، وهو ما جاء في المقامة الفراتيّة، " فلمّا تورّكنا على المطيّة الدهماء، وتبطّنّا الولية الماشية على الماء، ألفينا بها شيخًا عليه سحق سربال، وسِبٌّ بال، فعافت الجماعة محضره، وعنّفت مَن أحضره، وهمّت بإبرازه من السفينة ". (الشريشي، 2006م، جـ2، ص132) وهو ذاته ما ورد في مقامات الهمذاني من خلال حديثه عن احترام الرجل واهتمامه بهندامه.

أما في ما يتعلق في وصفه للأسواق فقد جرى ذكر الأسواق في مقاماته كالمقامة الفرضيّة، والبغدادية، وفي المقامة الرّقطاء التي نجد فيها حديثًا حول اتساع الأسواق وكثرتها، ففي الأهواز سوقان يقول الحارث بن همام:" حللت سوقي الأهواز ".(الشريشي، 2006م، جـ2، ص482) وفي الزبيديّة ذكر لنا الحريري جانبًا من الأسواق التي كانت رائجة أنذاك ألا وهي سوق النخاسة؛ تلك المهنة التي أشتهرت لكبر الدولة العباسية واتساع رقعتها، فقد بحث الحارث بن همام عن غلام في سوق النخاسة، قائلًا: " فقصدتُ مَن يبيع العبيد، بسوق زبيد، فقلت: أُريد غلامًا يُعجب إذا قُلّب ويُحمد إذا جُرّب "(الشريشي، 2006م، جـ3، ص17) وكان قد وجد فيها أبا زيد عارضًا ولده للبيع في صفة غلام فاشتراه منه فما زالت تجارة العبيد قائمة في تلك الحِقبة، وخير دليل على ذلك ما تعجّ به قصور الخلفاء وعلية القوم من جوارٍ وعبيد.

إضافة إلى تصوير المقامات لأهل الحِرف، إذ لم يُغفل الحريري ذكر أكثر الحِرف التي كانت سائدة أنذاك منها حِرفة التجارة التي وردت في غير موضع من المقامات؛ ففي المقامة السّنجاريّة ما جاء على لسان الحارث بن همام: " فصادف نزولنا سنجار، أن أولم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته ".(الشريشي، 2006م، جـ2، ص3) وفي المقامة الحجريّة برزت مهنة الحِجامة التي اتخذها السّروجي مهنة لخداع الناس مع ولده، حين قال الحارث بن همام: " احتجتُ إلى الحجامة وأنا بحَجر اليمامة، فأرشدتُ إلى شيخٍ يحجم بلطافة ويسفر عن نظافة فبعثتُ غلامي لإحضاره... ". (الشريشي، 2006م، جـ3، ص398)

ومن المعتقدات التي رصدها الحريري في مقاماته وكان قد رصدها من قبله الهمذاني ومثلت الواقع الاجتماعي الذي عاشا فيه وعاصراه؛ استخدام الحرز الذي يحمي صاحبه في السفر من المخاطر والغرق والطوفان والهلاك، جاء ذلك على لسان السّروجي عندما ركب إحدى السفن المتجهة إلى عُمان فخاطب أهل السفينة قائلًا: " إنّ معي لعوذة عن الأنبياء مأخوذة، وعندي لكم نصيحة، براهينها صحيحة، وما وسعني الكتمان، ولا من شيمي الحرمان، فتدبروا القول وتفهّموا. واعملوا بما تُعلّمون وعلّموا، ثم صاح صيحة المباهي. وقال: أتدرون ما هي؟ هي والله حِرزُ السّفر ".(الشريشي، 2006م، جـ3، ص129)

ومنه أيضًا ما حدث مع تلك المرأة سيدة القصر حينما تعسّرت ولادتها وكان السّروجي قد مرّ من أمام القصر فعلم ما يحدث فيه، واستطاع أن يقنع أهل القصر برقيته ومقدرته على المساعدة في الطلق والولادة وهو ما جاء على لسانه حين قال: " اسكن يا هذا واستبشر، وابشر بالفرج وبشّر! فعندي عزيمة الطلق التي انتشر سمعها في الخلق، فتبادرت الغِلمة إلى مولاهم متباشرين بانكشاف بلواهم ".(الشريشي، 2006م، جـ3، ص137) ومنها الخفارة في السفر أي أنّ القافلة لا بدَّ من أن يرافقها خفير من أهل الصلاح والتقوى؛ ليقوم بالدعاء من أجل حفظ تلك القافلة من مخاطر الطريق كما في المقامة الدّمشقيّة.(المزيد، 2006م، ص89)

وإننا بعد استقراء مقامات كلًّا من الهمذاني والحريري نستطيع القول إنّ هذا الفن ينطوي على قدر كبير من استجلاء الصور المتنوعة من حياة العامة في شريحة محددة من المجتمع العباسي إبّان عصريهما ولعلنا استطعنا أن نرصد عددًا من تلك الصور المتمثلة في العادات والتقاليد والأعراف.

هي صورٌ صادقة بعض الشيء لما كان في عصريهما من أحداثٍ ووقائع، ومرآة تعكس مختلف المظاهر الاجتماعية في مجتمعهما متّكأين في ذلك كلّه على البيئة التي عاشا فيها، فقد تمكّن الهمذاني بفضل أصله العربي وموطنه الفارسيّ من امتلاك الثقافتين العربية والفارسية وتضلّعه في آدابهما، متتلمذًا في همذان على يد عدد كبير من النّحاة وعلماء الدّين أبرزهم أحمد بن فارس، متنقلًا بين عدد من المدن في بلاد فارس وما حولها، ففي عام 382هـ سافر إلى نيسابور، وهي الرحلة التي حققت له الشّهرة والمجد، فرغم أنّه دخل المدينة مفلسًا خالي الوفاض لتعرّضه للسلب على يد قطّاع الطرق فإنّه حظي بمناظرة مع أبي بكر الخوارزمي - أشهر أدباء وشعراء العصر – واستطاع بفضل فطنته وبلاغته وحُسن عباراته التّغلب عليه والفوز في تلك المناظرة وهو ما حقق له المجد والشهرة في ما بعد.

أما الحريري فكانت مقاماته تشكل أبدعَ ما كتبه، وأفضل ما خطَّه قلمه، فقد بلغت شهرتها الآفاق واتفق العلماء على جودة سبكها وقوة أسلوبها، والحريري نفسه يدين بالفضل لمَن سبقه في هذا المجال، ألا وهو الهمذاني صاحب المقامات المعروف؛ حين قال الحريري في بداية مقاماته: " فإنّه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلّامة همذان - رحمه الله تعالى - وعزا إلى أبي الفتح الإسكندريّ نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهولٌ لا يُعرف ونكرة لا تتعرّف ".(الشريشي، 2006م، جـ1، ص19)

الخاتمة:

قد يبدو واضحًا من خلال هذا العرض الموجز بعض الشيء لكلّ ما تضمّنته مقامات كلّ من المقاميين الهمذاني والحريري أنّ هذا الفن ينطوي على قدر كبير من عادات وتقاليد شريحة محددة من أبناء المجتمع في العصر العباسي الثاني، ولعلنا استطعنا في هذه الدراسة أن نرصد بعضًا من تلك العادات والتقاليد منها؛ ارتباط الكدية بانتشار الفقر والحاجة وأثر كلّ منهما على المجتمع، وكثرة الحمامات العامة وعادات مرتاديها وما يجري فيها من حلق الرأس والحجامة، إضافة إلى رصد بعض المعتقدات لدى السّواد الأعظم من أبناء المجتمع كالخفارة، واستخدام الأحراز والتمائم وفائدتها في نجاة الإنسان من النّهب والسلب أو المرض ودورها في حماية صاحبها في السفر من المخاطر والغرق والطوفان أو الهلاك.

إنّها صورةٌ تكاد تكون واضحةَ المعالم بعض الشيء للواقع في العصر العباسي الثاني - حقبة الدراسة – ذلك المجتمع المسكون بالخوف والفقر والجوع. هي صورةٌ صادقة نوعًا ما لما كان في عصريهما من أحداثٍ ووقائع، ومرآة تعكس مختلف المظاهر الاجتماعية في مجتمع كلّ منهما.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج كان أهمها ما يأتي:

1. إنّ مقامات كلّ من الهمذاني والحريري تُعدّ من الوثائق التاريخيّة التي تعطينا فكرة صريحة عن الحياة الاجتماعيّة في زمانهما وأحوال العصر وأخلاق الرجال أنذاك.

2. إنّ مقاماتهما كانت صورة صادقة – إلى حدّ ما – لما كان في عصريهما من أحداثٍ وعاداتٍ وتقاليد، ومرآةً عاكسة لمختلف المظاهر الاجتماعيّة في مجتمع كلّ منهما.

3. إنّ موضوع الكدية في المقامات لم يكن هدفًا بل وسيلة للكشف عن عيوب المجتمع العباسي في بعض جوانبه.

المصادر والمراجع

خصاونة،1997 م، مقامات بديع الزمان الهمذاني :دراسة نصيّة، رسالة جامعية / دكتوراة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الأردن.

الداوي،1971 م، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة، مكتبة النهضة، بغداد – العراق.

دقيش،1435 هـ، فن المقامات :بين الهمذاني والحريري / دراسة فنيّة موازنة، رسالة جامعية / ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي – أم البراقي – الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

الدوري،1945 م، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السّريان، بغداد – العراق.

السّهيمي،2014 م، صورة المجتمع العباسي في مقامات الحريري / دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية، دولة ماليزيا.

الشريشي،2006 م، شرح مقامات الحريري، ط2، جـ1) ،2 ،(3 ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ضيف،1973 م، تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الثاني، ط11، دار المعارف، القاهرة – مصر.

عبود،2012 م، بديع الزمان الهمذاني، مؤسسة هنداوي، القاهرة – مصر.

كنه،2003 م، القصة في العصر العباسي، مع العناية بأهم الأشكال السردية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.

مبارك،1981 م، مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، ط2، دار الفكر – دمشق.

مبارك،1934 م، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، مؤسسة الهنداوي، القاهرة – مصر،1352 هـ1934 - م.

المزيد،2006 م، صور العادات والتقاليد في مقامات بديع الزمان الهمذاني، مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الجامعة الأردنيّة – عمادة البحث العلمي، مجلد33، عدد.2

المزيد،2007 م، صور من حياة العامة في مقامات الحريري، مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الجامعة الأردنية – عمادة البحث العلمي، مجلد34، عدد.1

الهمذاني،2010 م، المقامات، قدم لها وشرحها الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، وزارة الثقافة، عمان – الأردن.

اليعقوبي،2008 م، صورة المجتمع العباسي من خلال مقامات الحريري، رسالة جامعية / ماجستير، جامعة مؤتة – الأردن .خصاونة،1997 م، مقامات بديع الزمان الهمذاني :دراسة نصيّة، رسالة جامعية / دكتوراة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الأردن .الداوي،1971 م، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة، مكتبة النهضة، بغداد – العراق.

دقيش،1435 هـ، فن المقامات :بين الهمذاني والحريري / دراسة فنيّة موازنة، رسالة جامعية / ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي – أم البراقي – الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

الدوري،1945 م، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السّريان، بغداد – العراق.

السّهيمي،2014 م، صورة المجتمع العباسي في مقامات الحريري / دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية، دولة ماليزيا.

الشريشي،2006 م، شرح مقامات الحريري، ط2، جـ1) ،2 ،(3 ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ضيف،1973 م، تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الثاني، ط11، دار المعارف، القاهرة – مصر .عبود،2012 م، بديع الزمان الهمذاني، مؤسسة هنداوي، القاهرة – مصر.
كنه،2003 م، القصة في العصر العباسي، مع العناية بأهم الأشكال السردية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.
مبارك،1981 م، مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، ط2، دار الفكر – دمشق.
مبارك،1934 م، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، مؤسسة الهنداوي، القاهرة – مصر،1352 هـ1934 - م.
المزيد،2006 م، صور العادات والتقاليد في مقامات بديع الزمان الهمذاني، مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الجامعة الأردنيّة – عمادة البحث العلمي، مجلد33، عدد.2
المزيد،2007 م، صور من حياة العامة في مقامات الحريري، مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الجامعة الأردنية – عمادة البحث العلمي، مجلد34، عدد.1
الهمذاني،2010 م، المقامات، قدم لها وشرحها الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، وزارة الثقافة، عمان – الأردن.
اليعقوبي، 2008م، صورة المجتمع العباسي من خلال مقامات الحريري، رسالة جامعية /ماجستير، جامعة مؤتة –الأردن.

References

. Abboud,(2012 AD), Badi Al Zaman Al-Hamdhani, Hindawi Foundation, Cairo Egypt.

2006,26 vol. 1, 2, 3, Al-Sharishi, 6 AD, Explanation of Magamat Al Hariri, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon,

Al-Dawi, (1971 AD), The Iraqi Society in the Poetry of the Fourth Century of Hijrah, Al-Nahda Library, Baghdad, Iraq.

Al-Douri, (1945 AD), Studies in the late Abbasid eras, Al-Sharian Press, Baghdad – Iraq.

Al-Douri, (1945 AD), Studies in the late Abbasid eras, Al-Suryan Press, Baghdad, Iraq.

Al-Hamdhani, (2010 AD), Maqamat, presented and explained by Imam Allama Sheikh Muhammad Abdo, Ministry of Culture, Amman, Jordan.

Al-Sharishi, (2006 AD), Explanation of the Maqamat Al-Hariri, 2nd Edition, Part 2, 1, 3, Dar Al-Kutub Al-llmiyyah, Beirut-Lebanon.

Al-Suhaimi, (2014), The Image of the Abbasid Society in the Artistic Study, Master Thesis, Maqamat Al-Hariri / Objective Faculty of Languages, Al-Madinah International University, Malaysia.

Al-Suhaimi, (2014), The Image of the Abbasid Society in the Maqamat Al-Hariri / Objective Artistic Study, Master Thesis, Faculty of Languages, Al-Madinah International University, Malaysia.

Al-Yaqoubi (2008 AD), The Image of the Abbasid Society Through Maqamat Al-Hariri, University Thesis/ Master's Degree, Mutah (1997) The Maqamat of Badi al Study, University Thesis/ Ph.D., Yarmouk University, Faculty of Arts, Jordan. Al-Dawi, (1971 AD), The Iraqi Society in the Poetry of Zaman al-Hamdhani: Textual the Fourth Century of Hijrah, Al Nahda Library, Baghdad – Iraq.

Al-Yaqoubi, (2008), The Image of the Abbasid Society Through Maqamat Al-Hariri, Master Thesis, Mu'tah University, Jordan.

Bibliography Khasawneh, (1997). The Maqamat of Badi Al-Zaman Al-Hamdhani: Textual Study, University Thesis/Ph.D., Yarmouk University, Faculty of Arts, Jordan. M

Daqish, (1435 AH), The Art of Maqamat: Between Al-Hamdhani and Al-Hariri/ Artstic Study Balancing University Thesis/ Master's Degree, Al-Arabi Bin M'hidi University - Umm Al-Baraki - People's Democratic Republic of Algeria.

Daqish, (1435 AH), The Art of Maqamat between Al-Hamdhani and Al-Hariri/ an artistic study balancing a university thesis/ master's degree, Al-Arabi Bin M'hidi University - Umm Al-Baraki - the People's Democratic Republic of Algeria.

Dar Al Maarif, Cairo Egypt.11

Deif, (1973 AD), History of Arabic Literature / the Second Abbasid Era.

Dhaif, (1973 AD), History of Arabic Literature/The Second Abbasid Era, 11th Edition, Dar Al-Maarif, Cairo- Egypt. Abboud, 2012 AD. Badi Al-Zaman Al-Hamdhani, Hindawi Foundation, Cairo- Egypt.

Kanna, (2003 AD), the story in the Abbasid era, with attention to the most important narrative forms, master's thesis, Faculty of Arts, University of Khartoum.

Kanna, (2003). The story in the Abbasid era, with attention to the most important narrative forms. Master's thesis, College of Arts, University of Khartou Mubarak, 1981 A.D., Al-Hamdhani Society through its Maqamat, 2nd, Dar Al-Fikr -Damascus.

M. Al-Hamdhani, (2010) Maqamat, presented and explained by Imam Allama Sheikh Muhammad Abdo, Ministry of Culture, Amman, Jordan.

More, (2006 AD), Images of Customs and Traditions in the Maqamat of Badi' Al-Zaman Al Hamdhani, Journal of Humanities and Social Sciences Studies, University of Jordan - Deanship of Scientific Research, 33(2).

More, (2007), Pictures from Public Life in the Hariri Maqamat Journal of Humanities and Social Sciences Studies, University of Jordan - Deanship of Scientific Research, 34(1).

More, (2007), Pictures from Public Life in the Hariri Maqamat Journal of Humanities and Social Jordan - Deanship of Scientific Sciences Studies, University of Research, 34(1)

More,(2006 AD), Images of Customs and Traditions in the Maqamat of Badi' al-Zaman al Hamdhani, Journal of Humanities and Social Sciences Studies, University of Jordan, Deanship of Scientific Research, 33(2).

Mubarak (1934 AD), artistic prose in the fourth century AH, Hindawi Foundation, Cairo - Egypt, 1352 AH 1934 - AD.

Mubarak (1934 AD), artistic prose in the fourth century AH, Hindawi Foundation, Cairo - Egypt, 1352 AH 1934 -AD.

Mubarak, (1981 AD), Al-Hamdhani Society through its Maqamat, 2nd, Dar Al-Fikr - Damascus.